من هو محمد؟

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾، ونبي ختم الله به الأنبياء، وإنسان شرّف الله به الإنسانية، وبشر أكرم الله به البشرية، لو تمثّل العدل في كيان لتمثّل في كيانه، ولو صُوّر الطُّهر في روح لكانت روحه، ولو رُسِمت الفضيلة في ذات لكانت ذاته، هو بشر بأبي هو وأمي يأكل الطعام، ويمشي في الأسواق، لكن نور النبوة بين جنبيه، وسراج الرسالة يجري بين يديه، وتاج العصمة على رأسه، كلامه صدق، وفعله حق، ومنهجه قويم، وصراطه مستقيم، وخُلقه عظيم، وجنابه كريم، يدور الحق معه حيثما دار، وتسير البركة معه حيثما سار، يسبقه القبول إذا توجّه، وتنزل معه الرحمة إذا نزل، ويقيم معه الجود إذا أقام، ويرتحل معه البشر إذا ارتحل، هو اليُسر كله، فدينه يسر، وكتابه يسر، وسُنّته يسر، وأمره ونهيه يسر؛ لأنه ميسّر لليسرى، تقرأ سير العظماء، فإذا قرأت سيرته صاروا صغاراً، وتطالع أخبار المصلحين والمجددين، فإذا طالعت أخباره تحولوا إلى تلاميذ، تعجب بالعباقرة والروّاد فإذا عشت مع سُنّته رأيتهم طلاباً صغاراً في مدرسته.

أثنى عليه الأعداء قبل الأصدقاء، ومدحه البعيد قبل القريب، تسابق في طاعته أبو بكر القرشي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي، تذكر اسمه عند الأتراك فتفيض عيونهم بالدمع، تورد أحاديثه عند الأكراد، فتجيش أرواحهم بالشوق، تقص ملحمته على الفرس، فتسافر أرواحهم حبًّا إليه، له في كل مكان أتباع، وفي كل بلد أنصار، وفي كل قُطْرٍ محبون، يدوّي اسمه في الأذان في المنائر، ويُذكر على المنابر، ويدرّس في الدفاتر، يصيح المؤذّن في مكة والمدينة والقاهرة وصنعاء ودمشق وبغداد والحمراء والسند وجاكرتا وباريس وواشنطن، بقوة: (أشهد أن محمداً رسول الله) كل يوم خمس مرات يُذكر إذا ذُكر الله عز وجل، يتلو كتاب الله، يدعو إلى الله، يعبد الله، يجاهد في سبيل الله، ينصر شريعة

الله، يعيش لله، ويذهب إلى الله، فهو من الله، وإلى الله، وبالله، وعلى الله، وفي الله، يدعو بسيرته أكثر من كلامه، وبخُلُقه أكثر من خُطَبه، وبلينه ورفقه أكثر من شدّته وبطشه، فتح الدنيا لأمته بكنوزها ودورها وقصورها، ثم ذهب إلى ربه ودرعه مرهونة في ثلاثين صاعاً من شعير عند يهودي، لم يترك داراً ولا قصراً ولا بستاناً ولا مالاً، أسر قلوب الناس برحمته، وألَّف بين قلوبهم بلطفه، وآخى بينهم بحكمته، ورفع الجهل عنهم بعلمه، ووضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم بيسره.

بُعث ﷺ بالحنيفيّة السمحة، وبالدّين الخالص، وبالسُّنّة المطهّرة، وبالفطرة الصحيحة، وبالملّة الوسط، أتى بدين ودولة، وقلم وسيف، ومحراب ومنبر، أتى لصلاح الروح والبدن، والدنيا والآخرة، والرّجل والمرأة، كل صحابي من صحابته يروي حُبّه على طريقته، وكل منْ عاشره يصف شعوره بفيض دموعه، وكل منْ لقيه شهد بعظمته سواءً وافقه أو خالفه، لم تُحفظ له زلّة، ولم تُنقل عنه كذبة، ولم تعرف له عثرة، ولم تُسجّل له غلطة، عصم الله قلبه، وزكّى فؤاده، وطهّر روحه، وحفظ سمعه وبصره، ومدح نهجه، وأثنى على خُلُقه، وأشاد بإمامته، فهو سبحانه الذي اصطفاه للعالمين رسولاً، وللأميين معلماً، وللناس قدوة، وللجميع أسوة، كلما طالعت أخباره بإيمان وحب آثرته بالمحبة والتقدير والإعزاز على أمك وأبيك، الملايين يودون رؤيته ولو خسروا الأهل والمال، الألوف المؤلّفة يفدونه بأرواحهم، عاش بين أصحابه، فأخرج منهم الخليفة الراشد، والإمام العادل، والعالم الرباني، والمفسِّر البحر، والمفتي الجهبذ والخطيب المصقع، والقائد المقدام، والزاهد الورع، كل صحابي أخذ من عظمته جانباً واحداً، فصاروا عظماء التاريخ ونجوم الدهر، كما قال البوصيري:

فكُلُّهُم من رسولِ الله مُلتَمِسٌ
غَرْفًا مِنَ البحرِ أو رَشفًا مِنَ الدِّيَمِ

سوف تطالع قبله وبعده، غير الأنبياء والرسل، أخبار فاتحين وقادة وملوك وأجواد وفلاسفة وحكماء وعلماء وعباقرة، لكنك إذا طالعت سيرته فسوف تتساهم جميعاً، جلس ﷺ مع السادة والموالي والأغنياء والفقراء والرَّجل والمرأة والعربي والعجمي والعدو، والصديق، فقاموا وقد أسرهم وطوّق أعناقهم بكرمه وتواضعه وبشره وإقباله، عاش حياته ﷺ فرعى الغنم، ثم قاد الأمم، عاش الفقر والغنى، والصحة والمرض، والنصر والهزيمة، والسلم والحرب، والحضر والسفر، فكان في جميعها عبداً لله وحده، مخبتاً طائعاً، منيباً صادقاً، منصفاً عادلاً، وصدق الله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾. وتبارك القائل: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾.

الرسول ﷺ ترك رجالاً ولم يترك أموالاً

مـات الرسـول ﷺ بعدما أنزل الله عليه آخر آية مـن القرآن نزولاً: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾. وقد تمت الشريعـة، وكملـت الملة وربـى ﷺ رجالاً هم أئمـة الأمة إلى قيـام الساعة، منهم الخلفـاء الراشـدون والأئمـة المهديون ونجـوم الفقهـاء وشيوخ التفسـير وأبطال الجهـاد وأعلام الزهد، وهؤلاء الصحابة الذين علّمهـم ﷺ وربّاهم هم أساتذة الفتـوح وقـادة المجـد الإسلامي وقـدوة الأجيال اللاحقـة عبر القـرون في تاريخ الإسلام الطويل، ويوم مات الرسول ﷺ كانت درعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير، ولم يترك درهماً ولا ديناراً ولم يرث منه بناته وقرابته شيئاً، لأنه القائل: «**نحن معاشر الأنبياء لا نُورث ما تركناه صدقة**».

ومـات في غرفة من طين كانت قبره ﷺ فلم يـترك داراً ولا قصراً ولا بستاناً ولا كنـزاً ذهـب من الدنيا كما أتى تماماً لكنه ترك منهجـاً ربانيًّا وعقيدة عظيمة وسنة مطهّرة ودولةً إسلامية وجيلاً مؤمناً ورسالةً ربانيّة محمديّة لا يدفنها الدهر ولا تمحوها الريح، ولا يغسلها الماء ولا تغفلها الأيام.

ربـى أبا بكر الصديق رضي الله عنه آية في الصدق والإيمـان والتضحية، وعلّم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أستاذ العـدل وإمام الحزم وفاروق الإسلام، وأخرج عثمان بن عفان الرباني حامل القرآن السخي الجواد، ودرّب علي بن أبي طالب رضي الله عنه الإمام المرتضى والسيف المنتضـى بحر العلوم ورجل المواقف، وابن عباس رضي الله عنهما ترجمان القرآن وحبر الأمـة، وأُبيّ بن كعب سيد القراء، ومعاذ بن جبل رضي الله عنه قائد العلماء إلى الجنة، وأبا ذر الغفـاري رضي الله عنه أصدق من مشى على الغـبراء وسعد بن معاذ رضي الله عنه الذي اهتز له عرش الرحمن وخالد بن الوليد رضي الله عنه سيف الله المسلول الذي ما هُزم في معركة قط، وغيرهـم الألوف ممـن حملوا مشاعل النور وكانت صدورهـم مصاحف في الصدق

والصبر والصلاح، ولهذا السبب كانت حضارة الإسلام هي الأبقى والأتقى والأنقى على طول الزمان؛ لأنها تركت أفكاراً ومُثُلاً عليا وأخلاقاً راقية وشمائل طاهرة وصفات زكيّة وتعاليم ربانيّة بينما الحضارات الأخرى قامت على الاستيلاء وحقوق البدن وإشباع الرغبات والنزوات، لقد ترك كسرى وقيصر هياكل وقصوراً ودوراً وبساتين بلا أخلاق ولا عدل ولا صدق، فاجتاحتها جيوش الإسلام الفاتحة، وترك الفراعنة أهراماً وجسوراً وصوراً وتماثيل لكن بلا علم نافع ولا عمل صالح ولا إنصاف ولا مساواة، فدخل الإسلام بنوره وعدله، فبقي الإسلام وذهبت الآثار الأرضية الترابية، والإسلام يهتم بالبناء والتعمير، ولكنه يبدأ بعمار الروح وبناء النفوس وتثقيف العقول وتزكية القلوب وتطهير الضمائر، وبعدها يبني حضارة الإنسان ويهتم بمسكنه ومطعمه وملبسه وصناعته وفلاحته.

كان الرسول ﷺ يسكن غرفة صغيرة من طين ولكن من هذه الغرفة أرسل نور الهداية للعالم وأطلق شمس العدل في المعمورة وبث ضياء الإيمان في الكون، في هذه الغرفة نزل جبريل بالذكر الحكيم والمنهج القويم على النبي الكريم، في هذه الغرفة بُنيت معالم الدولة الإسلامية العادلة الرشيدة، وقُضي على الظلم والاستبداد والجهل والأميّة، لما بُعث الرسول ﷺ كان الناس في حاجة إلى بيوت مشيّدة وطرق معبّدة ومزارع خصبة ومعامل للخياطة والنساجة والحدادة، ولكنه ﷺ بدأ بالإنسان أولاً واستثمر فيه، ووجّه نوره وتعاليمه إلى قلب هذا الإنسان لأن الإنسان؛ إذا صلح واستنار قلبه وتثقف عقله وارتفعت همته فسوف يقوم ببناء الحياة وإصلاح الدنيا على أكمل وجه، وماذا ينفع مصنع ومعمل وشركة وملعب وميدان وحديقة يعيش فيها فجرة أشقياء، ومردة أغبياء، وظلمة أدعياء، إنهم سوف يخرّبون العمار، ويفسدون الديار، ويهدِّمون الأمصار، لكن يوم تُصلح الفرد وتُربي الجيل وتهدي البشر إلى الإيمان والعدل والرحمة والحرية والسلام تترك أمةً تبني الحضارة بجدارة وتعمر الدنيا بذكاء، ولهذا لما ترك الرسول ﷺ للعالم هذا الرعيل الأول لم تمضِ عشرات السنوات إلا وبحضارة الإسلام تشرق

بنورها على أوروبا، وتبزغ بشمسها على سهول الهند والسند، وتفتح بقوافل العلماء والفقهاء والمصلحين أدغال إفريقيا وفيافي طاشقند وسمرقند ونهاوند، ولو أتت أمة قاهرة فحطمت كل عمارة أو بناء إسلامي لما استطاعت أن تمحو حضارة الإسلام وثقافته، وما تركه في النفوس والعقول من الإيمان والعلم والمعرفة، قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾. قال شوقي يمدح حضارة الإسلام:

كانوا ملوكاً سريرُ الشّرقِ قبلتهم
فهل سألتَ سريرَ الغربِ ما كانوا؟

عالينَ كالشمسِ في علياءِ دولتهم
في كلِّ أرضٍ لهم حُكمٌ وديوانُ

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾

مـن منكم يقرأ أخلاقـه ﷺ، ثم لا يهتـز كيانه وتسيل دموعـه، ويذوب قلبه شوقـاً؟ من منكم يملك عواطفه أمام نبله وكرمـه وشهامته وتواضعه ﷺ؟ من ذا الذي يطالع سيرته الجميلـة وصفاته الجليلة وأخلاقه النبيلة، ثم لا ينفجر باكياً، ويصرخ: أشهد أنك رسول الله؟ ليتنا نعامل أصدقاءنا كما عامل رسولنا ﷺ أعداءه: «**إن الله أمـرني أن أصـل مـن قطعنـي، وأن أعطـي مـن حرمنـي، وأن أعفـو عمـن ظلمنـي**»، ليتنـا نعامـل المسلمين كما عامـل رسولنا ﷺ المنافقين فقـد صح عنه أنه كان يعفـو عنهم ويستغفر لهم ويَكِلُ سرائرهم إلى الله، ليتنا نعامل أبناءنا كما عامل رسولنـا ﷺ الخـدم والعمال، فقـد كان له ﷺ غلام يهودي يخدمـه فمرض الغلام فعاده ﷺ وجلس عند رأسه وسأل عن حاله ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم الغلام فقال رسول الله ﷺ وهو مستبشر مسرور: «**الحمد لله الذي أنقذه بي من النار**».

وقام رجل من اليهود يتقاضى الرسول ﷺ ديْناً في المسجد أمام الناس، فرفع اليهودي صوته على الرسول ﷺ وألـحَّ بصخب وغضب والرسول ﷺ يتبسّم ويترفَّق به، فلما طال الموقف صرخ اليهودي قائلاً: أشهد أنك رسول الله.

لأننا نقرأ في التوراة عنك أنك كلما أُغضبت ازددت حلماً، آذاه قومه، طردوه، شتمـوه، أخرجـوه، حاربوه، ما تركوا فعلاً قبيحاً إلا واجهـوه به، فلما انتصر وفتح مكة قام فيهم خطيباً وأعلن العفو العام على رؤوس الأشهاد والتاريخ يكتب والدهر يشهد: (**عفا الله عنكم اذهبوا فأنتم الطلقاء**) طرده أهل الطائف ورموه بالحجارة وأدمـوا عقِبيه بأبي هو وأمـي ﷺ فأخذ يمسح الدم، ويقول: «**اللهم، اغفر لقومي فإنهـم لا يعلمـون**»، يوقفـه الأعرابي في الطريق فيقف معه طويـلاً، ولا ينصرف حتـى ينصرف الأعرابي، تسألـه العجوز، فيقف معها مجيباً مترفّقـاً بارًّا حنوناً، تأخذ الجارية بيده ﷺ فينطلق معها حتى توقفه على مشهدٍ أثَّر في نفسها، يحافظ

على كرامة الإنسان واحترام الإنسان وحقوق الإنسان، فلا يسب ولا يشتم ولا يلعن ولا يجرّح ولا يشهّر وإذا أراد أن ينبّه على خطأ قال: **ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟** ويقول: «**ليس المؤمن بالطّعان ولا اللعّان ولا الفاحش البذيء**» ويقول: «**إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجالسَ يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا**»، يخصف نعله، يخيط ثوبه، يكنس بيته، يحلب شاته، يؤْثِر أصحابه بالطعام، يكره التّزلّف والمديح والتّملّق، يحنو على المسكين، يقف مع المظلوم، يزور الأرملة، يعود المريض، يشيّع الجنازة، يمسح رأس اليتيم، يشفق على المرأة، يقري الضيف، يُطعم الجائع، يمازح الأطفال، يرحم الحيوان، قال له أصحابه: ألا تقتل الشرير الفاجر رأس المنافقين عبدالله بن أُبي بن سلول؟ فيقول: «**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**».

أقرأُ سير العظماء والفاتحين والمجددين والمصلحين والعباقرة، فإذا قرأتُ سيرته ﷺ فكأنني لا أعرف أحداً غيره، ولا أعترف بأحد سواه، يصغرون في عيني، يتلاشون من فؤادي، ينتهون من ذاكرتي، يغيبون عن مخيّلتي:

تعاودُني ذكراك في كلِّ لحظة
ويُورقُ فكري فيكَ حينَ أفكّرُ

وأصرخُ والآهاتُ يأكلُها الأسى:
زمانُك بستانٌ وروضُك أخضرُ

أحبُّك لا تفسيرَ عندي لصبوتي
أفسّر ماذا؟ والهوى لا يُفسّرُ

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لن تغيب عنّا، أنت في قلوبنا، أنت في أرواحنا، أنت في ضمائرنا، أنت في أسماعنا وأبصارنا، أنت في كل قطرة من دمائنا، أنت في كل ذرة من أجسامنا، أنت تعيش في جوانحنا بسنَّتك وهديك ومُثُلك العليا وأخلاقك السامية، فديناك بالأنفس، فديناك بالأبناء والأهل جميعاً، أرواحنا لروحك الفداء، أعراضنا لعرضك الوقاء:

أتسألُ عنْ أعمارِنا؟ أنتَ عمرُنا
وأنتَ لنا التاريخ أنتَ المحررُ

تذوبُ رموزُ الناسِ مهما تعاظمُوا
وفي كلِّ يومٍ أنتَ في القلبِ تكبرُ

صلى الله وسلم عليك، كلما ذكرك الذاكرون، وصلى الله وسلم عليك، كلما غفل عن ذكرك الغافلون.

obeikandl.com

رسول الرحمة والمحبة والسلام

الصلاة والسلام، على رسول الرحمة والمحبة والسلام، إن قوماً أحبوك لمأجورون، وإن أناساً عشقوا سيرتك لمشكورون، وإن بشراً هاموا بتعاليمك لمعذورون، آمل من كل محب للحقيقة، عاشق للإنصاف أن يطالع بتجرد سيرة النبي المعصوم محمد بن عبدالله ﷺ، كلما طالعتُ سيرته ﷺ بتمعن وتأمل ظهرت لي حقيقتان: الأولى أن النجاة والنجاح والسعادة باتباعه وحده ﷺ. الثانية أن كثيراً منا ظلم سنّته وسيرته حين فهمها فهماً مشوّهاً، وقدّمها للآخرين بصورة مغلوطة، أقرأُ في صحيح السنة أنه ﷺ يمسك بخطام الجمل، ويضع قدمه على ركبة الجمل؛ لتركب إحدى زوجاته، وهو يهيئ لها الركوب، فمَنْ منّا يفعل ذلك مع أهله؟

وفي صحيح السنة أنه ﷺ في بيت عائشة تهدي إحدى زوجاته له طعاماً في جفنة، فتغار عائشة وتضرب الجفنة فتكسرها ويتناثر الطعام، فيأخذ ﷺ في صمت وهدوء وحكمة وسكينة جفنة من بيت عائشة ويضع فيها طعاماً ويردها مع الجارية إلى بيت زوجته الأخرى، ويقول: «**طعام بطعام وجفنة بجفنة**». أقرأ في صحيح السنة أن أعرابيًّا قدم من البادية فأمسك ببرد الرسول ﷺ وجذبه بعنف وغلظة حتى احمر عنقه ﷺ وأثّر البرد في عنقه، ثم صاح الأعرابي بجفاء وغضب في وجه الرسول ﷺ وهو يقول: أعطني من مال الله الذي عندك لا من مال أبيك ولا من مال أمك. فيضحك ﷺ في سماحة وعفو وحلم ويأمر له بعطاء. أقرأ في صحيح السنة أن امرأة توقفه ﷺ في إحدى طرق المدينة في الشمس، فيقف لها حتى تنهي حديثها، وتأخذه جارية بيده ﷺ فيذهب معها حتى تريه عناقاً ميتة في إحدى سكك المدينة، ويبول أعرابي في المسجد فيريد الصحابة ضربه، فيمنعهم ﷺ ويتحبب للأعرابي ويتعطف عليه حتى يتعلم السنة والأدب.

اجتمع عليه ﷺ الأعراب في حنين يريدون العطاء، ويجرون بكسائه ويتعلق كساؤه بشجرة فيوزع عليهم الغنائم، ولا يبقي لنفسه درهماً ولا ديناراً. يبالغ

أعداؤه في أذيته، يخرجونه من دياره، يسبونه، يشتمونه، يحاربونه، يشجون رأسه، يكسرون ثنيته، يدمون عقبيه يقتّلون أصحابه، ثم ينتصر، فيقول: «**عفا الله عنكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء**». يترجم أخلاقه بقوله: «**إن الله أمرني أن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني**»، يحمل الأطفال، يداعبهم، يضاحكهم، يمازحهم، يحمل أمامة بنت زينب ابنته على كتفه وهو يصلي بالناس، يصافحه الإنسان، فلا ينزع ﷺ يده من يد من يصافحه حتى يترك المصافح يده، يتبسم في وجوه الناس، يختار في حديثه أرق وأجمل وأحسن وأحلى العبارات، يدفع بالتي هي أحسن، يكظم الغيظ، يعفو عن الزلة، يوقر الكبير، يرحم الصغير، يتحنن على المسكين، ينصر المظلوم، يرعى حق الصحبة، يباشر ﷺ الخدمة بنفسه، فيخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويصلح بيته، ويعين أهله في المنزل، ويساعد أصحابه في العمل، يركب الحمار، ويمشي حافياً، وينام على التراب، ويربط الحجر على بطنه من الجوع، ويأكل مع المساكين، ويزور الضعفاء، ويعود المرضى، ثم يستحق بجدارة قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾.

كنت أقرأ مع أحد زملائي وأصدقائي فصولاً من سيرته ﷺ، ثم رفعت رأسي أطلب من صديقي التعليق على ما سمع، وإذا بدموعه تتحدر على خده، ويقول لي: يكفي يكفي.

إن أجمل تعليق وأحسن شرح على سيرته ﷺ أن ترسل دموعك الحارة الصادقة شوقاً لصحبته، وغراماً بسيرته، وترسلها مرة ثانية بكاء على واقعنا المؤسف ونحن غلاظ شداد، لا نصبر ولا نتحمل ولا نعفو، ولا نسامح إلا من رحم ربك، هل من عودة صادقة لسيرته ﷺ؟

إلى القرآن من جديد

طالب حجة الإسلام الإمام الغزالي في (إحياء علوم الدين) والمفكر الجزائري الكبير مالك بن نبي في كتابه (الظاهرة القرآنية) بقراءة جديدة للقرآن يقرؤها الإنسان بعقلية متدبرة منفتحة خالية من أي تصور سابق عن القرآن، فهو ليس كلام بشر وليس على طريقة كتب البشر، فلا هو كتاب تاريخ ولا جغرافيا ولا فلسفة ولا رواية ولا شعر، ولكنه كتاب عظيم: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾، ومما يُشكر لطه حسين أنه قسم الكلام ثلاثة أقسام: قرآناً وشعراً ونثراً، فجعل القرآن قسماً مستقلاً ليس بشعر ولا بنثر، وعليك إذا قرأت القرآن أن تستحضر مشهد من هو الذي تكلم بالقرآن جلا في علاه؟ فهو ملك الملوك الواحد القهار، وأن تستحضر من هو المخاطب بالقرآن؟ وهو هذا الإنسان العبد المذنب الناقص الفقير المحتاج، وأن تستحضر إعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه وعرضه ومعانيه ودلالاته وأسراره وأن تتلقاه بنفس مؤمنة تصدق أنه من عند الله، لا بنفس خبيثة جاحدة مكذبة؛ لأنه سوف يزيدها عمى كما قال تعالى عن أعدائه: ﴿ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾.

أما المؤمنون فيزدادون به إيماناً ويخشعون ويبكون أو يتباكون ويركبون في سلم العبودية ويتدرجون في معارج الإيمان والعلم ويتطهرون به من أدران الجاهلية وأوضار الوثنية ويغتسلون بنهره العذب من الأخلاق الدنيئة والسلوك الفاسد والصفات الذميمة ويستضيئون بنوره في طرق الحياة وسبل العيش وأبواب المعرفة والرقي والتمدن، والقرآن هو كتاب الثورة العالمية الكبرى التي أطلقها رسول الله ﷺ من مكة لتحرير الإنسان من عبوديته للإنسان أو للأوثان إلى عبودية الرحمن، وهو كتاب تنوير وتحرير وتغيير وتجديد للنفس والحياة والمجتمع والدولة والأمة، تعالوا أيها المؤمنون، نقرأ القرآن من جديد بتدبر وخشوع؛ علَّ الله أن يرحمنا بهذا الكتاب المجيد وينقذنا به من الكفر والدنس والهم والغم والحزن والقلق، وعجبي لا ينتهي

مـن فروخ المذاهـب الأرضية الذين حاربـوا الإسلام وعارضـوا رسالته وأعرضوا عـن كتابه العظيم، القـرآن، ثم تجدهم عبيداً أرقاء لـكلام الملاحدة وأطروحات الفلاسفة وروايـات الزنادقة فما جزاؤهم إلا الخزي والعـار، وفي الآخرة العذاب والنـار، كيف يقدّمون كلام إنسان ناقص واهم ينسـى ويغفل وينام ويأكل الطعام ويمرض ويموت علـى كلام الواحد الديّان الحي القيوم الـذي يُطعِم ولا يُطعَم ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يموت جل في علاه.

ثـم إن القـرآن معجزة في ذاته سـوءاً في لفظه أو في معنـاه بشهادة أساطين البيان ورواد الفصاحة ورموز العربية، والقرآن وحده هو الذي هزم العرب العرباء أهـل سوق عـكاظ في الفصاحة وأرباب النوادي في البيـان، فأقروا لعظمة القرآن مذعنـين، وعادوا لأنفسهم منكسريـن، وسجلوا بحق القـرآن شهادات من المديح والإعجاب، وأنا المقصـر العاجز منذ أربعين سنة أقرأ في الأدب والتاريخ والرواية والقصـة والفلسفـة والله الـذي لا إلـه إلا هو مـا أروى غليلي ولا أشفـى عليلي إلا القـرآن، ووجدت من هو أذكـى مني وأكثر علماً ونبوغاً يـدلي بهذه الشهادة كابن جريـر الطبري والجرجاني والراغـب الأصفهاني والرافعـي والبشير الإبراهيمي وعبدالحميد بن باديس والشعراوي والطنطاوي وغيرهم.

إنني أقترح أن نبدأ يوميًّا في عالمنا الإسلامي بقراءة حزب أو أكثر من القرآن نتدبـره ونعمل بـه ونصلح به نفوسنا وحياتنا ومجتمعنـا، وسوف تجد أيها القارئ الكـريم، من كتـاب الله المتعة الروحية والرضـى النفسي واللـذة العقلية؛ لأن فيه البراهـين والحجج الساطعـة وفيه القصة الموحية والمثل الصـادق والحوار النافع المفيـد والأحـكام الصالحة لكل زمان ومـكان، هيا نعود جميعاً عـودة صادقة إلى كتـاب ربنـا بعد أن اختطـف المشروع الاستعمـاري الصليبـي التغريبـي كثيراً من شبابنا، فصاروا أرقاء للثقافة الغربية وعبيداً للفلسفة اليونانية ونظروا إلى القرآن علـى أنه كتاب طقوس دينية وتراث قـديم وفيه روحانيات تصلح للشيوخ العجائز:

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾، وإنني من جريدة الشروق الجزائرية الرائدة أطلق صرخة: (إلى القرآن من جديد) أنادي فيها الجميع بلا استثناء أن نبدأ من أول المصحف بقراءة جديدة لكتاب الله بقلوب حاضرة ونفوس مطمئنة مستعدة للعمل، وصدقوني فإنكم سوف تجدون ما لا يدور بالخيال ولا يخطر بالبال من الطمأنينة ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾، ومن السعادة ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾.

أخي المسلم أختي المسلمة، كيف يمر بكم يوم كامل وما عطرتم أنفاسه ولا طيبتم دقائقه بتلاوة عطرة بآيات من كتاب الله كلنا مسؤول أمام الله، العالم، الرئيس، الأمير، الوزير، الشاعر، الكاتب، المهندس، الفلاح، كلنا مخاطبون بهذا الذكر العظيم، وكلنا خدّام للرسالة الخالدة التي بُعث بها سيد ولد آدم محمد بن عبد الله بأبي هو وأمي ﷺ، وأبشركم وأنا قد طفت ما يقارب أربعين دولة إسلامية أنني قد وجدتُ جيلاً صاعدًا مؤمنًا يبدأ يومه بالقرآن ويختمه بالقرآن فانشرح صدري وارتفع رأسي وكنت أردد الآية الكريمة آية الأمل والكفاح والنهضة والثورة والعزة والتفاؤل، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

هل عرفت المعجزة؟

لكل أمة معجزة، ومصدر فخـر، وقاموس شرف، ومعجزتنا وفخرنا وشرفنا القـرآن؛ لولا القـرآن لمسخت الديانـة، وذهبت اللغـة، وانطمسـت الهوية، وفسد البرهان، وسقطت الحجة.

القـرآن حياة أمة، وميـلاد حضارة، وناموس مجد، وسجـل مكرمات، وديوان فضائل، مسكين الذي لا يقرأ القرآن ولو قرأ كتب الدنيا، وصغير من لم يتدبر القرآن ولـو تدبر كل نتاج البشـر، في القرآن خشوع القانت، ورقـة الزاهد، وعظمة القائد، وإقدام المناضل، وعزة الشهيد، وجمال الحق وجلال الفضيلة، في القرآن بنود الحكم وأسـس الدولة العادلة وبطاقة الشورى وميثاق السلام وأبهة الملك، في القرآن معالم الإيمـان، وحب الوطن، وطهـر السياسة وهيكل الاقتصـاد، ومجالس المعرفة، وعِبَر التاريـخ، وأسَر الطبيعة، وقصة الزمن، في القرآن تحيات زاكيات طيّبات مباركات، فهـو يحيي العـالم التقي، والحاكم العادل، والعامل المثابـر، والجواد المنفق، والغني الشاكر، والفقير الصابر، والمبتلى المحتسب، والمناضل المقدام، والعاقل الحصيف، والخلوق المتواضع، والمطلع المتدبّر، والمرأة العفيفة المؤمنة الشريفة.

في القرآن هجوم أدبي كاسح على أساطين الإلحاد، ومردة الشرك وشياطين الوثنية ورموز الظلم، وعملاء البغي والاستبداد، والإقطاعيين والأفاكين والمرتشين والمرابين، وفيه نسف وإبادة لمعاقل الزور، وملاعب الجاهلية، وأوكار الجريمة، ودور اللهـو والعبث، وفي القرآن تنديد شديد، ووعيـد أكيد على هواة البذخ والإسراف، وعشاق المظاهر الزائفة، والاستعراضات الخادعة، والدعاوى الكاذبة، وفي القرآن صيحـة غضب على صنّاع العدوان، وأتباع الشيطـان، وهواة الدجل والبهتان، فهو يهاجم -بـلا هوادة- الطغاة والبغـاة والغلاة، ويسخر مـن المتجبّرين والمتكبرين والعاطلـين الفاشلين، والغافلين المعرضين، والقسـاة الجاهلين، في القرآن فحص

دقيق وكشف عميق لأسرار النفس وخبايا الضمير وخفايا الصدور ومكنون النيات، وفيه تعرية لبخل الغني، وجحود المعترض، وغطرسة المستبد، وتيه الأحمق المتعالي، وجرأة الفاجر ولؤم العاق، وسموم الشرير، وأقنعة المنافق.

في القرآن الحديث الراقي عن أخبار الأمم وتاريخ الشعوب وحكاية الدول وأنباء القرون، والقرآن يحدثك عن قوافل التجارة، وسفن البحّارة، وكتائب الجنود، وحياة البادية، وقصة الحضارة، كأنك تسمع في القرآن بكاء العباد، ودعاء الزهّاد، وسمر الملوك، وأصوات الرعاة، وخطب الوعّاظ، ورسائل الأدباء، ومباحثات الساسة، وأهوال الحروب، وفنون السلام والمعاهدات الدولية والوثائق التاريخية، في القرآن رواية مذهلة عن الشمس، ومذكرة موحية عن القمر ومحاضرات عن النجوم والكواكب، وحصص عن الفلك والكائنات، وفيه زمجرة الرعد ولمعان البرق وزحف السحب وروعة الغيث المدرار، والوصف المعبّر المدهش عن الحدائق الغناء ذات البهجة، والبساتين الفيحاء الهائمة في الحسن، في القرآن ريشة الرسّام، وقلم الحكيم، وعرش السلطان، وسجّادة المنيب، ومنبر الخطيب، وحلقة المفتي، وورشة العامل الجاد، وإلهام العبقري.

القرآن كفاح وتضحية، ونضال واستبسال، وصدق ووضوح وإخلاص وتفانٍ، وسباق ومنافسة، وهمة وإقدام، وإتقان وجودة، وصبر واحتساب، وعدل وخشية، وعلم وعمل، وروح وجسد، وغيب وشهادة، ودنيا وآخرة، وراعٍ ورعيّة، ومظهر ومخبر، وحياة وموت.

في القرآن حرية الرأي، وفضيلة الإقناع، وذم الإكراه، ومقت السيطرة، والدعوة للمصالحة الاجتماعية، والأخوة الإنسانية، وبناء صروح المعرفة، والإشادة بالعقل، ومدح العفو، والزجر عن الانتقام الطائش والتهور الممقوت، والاختلاف المنبوذ، إنه وثيقة ربانية من المعاني السامية والأهداف النبيلة والأفكار العظيمة والتعاليم الراشدة، والوصايا الحكيمة، والعظات البليغة، والدليل الهادي، والبرهان النيّر، فتبًّا لمن أعرض عن القرآن.

أين عشَّاق البيان؟

كيف يتذوق جماليات البيان في القرآن العظيم من صار عقله كالفول السوادني المدمّس بسبب التخمة والسهر على: افتح يا سمم، وقراءة الغثيان الفكري والسّفه المعرفي والأدب الرخيص للمراهقين عقليًّا، تدبر القرآن يحتاج إلى عقول عظيمة وضمائر حية؛ لأنه كلام عظيم باهر يأخذ بالألباب، ويذهل العقول، حتى قال عنه الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾ هذا وهم جن، إن من معالم عظمة القرآن بيانه الخلّاب الجذّاب وأسره ودمغه للخصوم وسموه وجلاله وأخذه بمجامع النفس واستيلاؤه على منافذ الروح، وكم قرأ روّاد البيان وأساطين الأدب من رواية وقصيدة ومقامة وملحمة وإلياذة، ثم قرؤوا القرآن، فأعلنوا كلهم الانبهار والإذعان والتسليم لهذا الفيض الرباني والجلال البياني واسألوا الجاحظ وعبدالقاهر الجرجاني والراغب الأصبهاني والزمخشري وغيرهم، بل إن كفار قريش وقفوا حائرين أمام قواصف وعواصف وقذائف القرآن، ولا بد أن نلتمس لجيلنا الحاضر العذر في هذه الغيبوبة والغفلة عن مواضع الجمال في كتاب الله والمشغول بشد الجنز، وركوب البنز، وجمع الكنز، كيف يتفرّغ لتسريح النظر في حدائق القرآن ذات البهجة، ومتى يتلذّذ بمشاهدة خمائل القرآن الزاهية؟

وإذا أردت أن تعرف المستوى الثقافي الهابط للعرب فانظر لركاب الطائرة والحافلة تجد الغالب لا يقرؤون ومن يقرأ يطالع أخبار العقار وأسعار الأسمنت ومتابعة الموضة، فهل وجدت فيهم من يشاركك المتعة الذهنية والعشق البياني لهذا القرآن العظيم، هل تظن أنك سوف تطالع في حياتك أبهى وأبهر وأبهج وأسمى من هذا الكلام الباهر المفحم المعجز؟ كيف نريد السمو الحضاري والرقي المعرفي وبعض مثقفينا يتبجّح بطلاسم من الأدب الرمزي؛ ليظهر تفوقه الثقافي وينظر إلى القرآن على أنه كتاب ديني تراثي قديم، والله لا أشعر بتهافت كلام الناس ورخص أقوال البشر إلا حينما أتغنى بآيات محكمات، أو أسمع لقارئ جميل الصوت ليزلزل

أعمـاق النفس بهذا الذكر الحكيم، ثم طالعت كلاماً لرموز الإصلاح والعلم، فإذا هم مبهورون بهذا الكلام الآسر الأخّاذ وقد كتبوا شهاداتهم كما فعل جمال الدين الأفغاني ومحمد عبـده ومحمد إقبال وعبدالحميد بن باديس والطاهر بن عاشور وابـن سعـدي والبشير الإبراهيمي وغيرهـم، كلهم أعلنوا وقوفهـم خاشعين أمام روعة وجلال وسلطان القرآن.

لقد سمع الوليد بن المغيرة أحد أساطين الكفر أول سورة «فصّلت» فاندهش، وانبهـر، وقال: إن له حلاوة وعليه طلاوة وإن أعلاه مورق وأسفله مغدق، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه، وهذه شهادة عدو، فكيف بالصديق المحب؟

وأنـا أطالب القراء أن يتفضّلوا علينا بخمس دقائق من وقتهم؛ ليقرأ أحدهم في خشـوع وترنم وتغنٍّ سورة الجن ثم يخبرنا بمشاعـره وماذا وجد؟ أما الذين لا يبهرهـم جمـال الحرف، ولا يتذوقون حلاوة الإبـداع، ولا يحسون بأسر البيان ولا بسحر الفصاحة فيكفيهم التجوال في سوق الخضراوات، كما قال البحتري:

عَـلَـيَّ نَـحـتُ الـقَـوافي مِـن مَـعـادِنـهـا
وَمـا عَـلَـيَّ إذا لم تَـفـهَـمِ الـبَـقَـرُ

القرآن والثورات العربية

لا يشفي غليلي، ولا يروي عليلي في باب البيان والتأثير إلا الجملة القرآنية الآسرة الجزلة المشرقة، وقد عرفتُ سر انهزام العرب العرباء الفصحاء أمام إعجاز القرآن ونصاعة بيانه وبراعة فصاحته، حتى استسلموا وأذعنوا جميعاً، والدمغة القرآنية لها صفة خاصة من حيث الجرس والوقع والتأثير، حتى قال تعالى: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾، وقد أشارت بعض الصحف المحلية إلى ظاهرة الاستشهاد بالآيات القرآنية في الثورات العربية عبر الفضائيات، لكنها مرت على هذا الخبر مروراً عابراً، وكنت أتابع الاستشهاد القرآني في الفضائيات فيملأ قلبي يقيناً ويعمر نفسي إبداعاً وجمالاً، ويسافر خيالي مع هذا الحسن الذي يأخذ بالألباب، كان المذيع يعلق على مشهد خروج الرئيس المصري بطائرته من القصر، فيقول: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً ﴾ وينتهي نهاية الرئيس التونسي، ثم يقول: ﴿ أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾ ويتصل دبلوماسي ليبي منشق عن نظام القذافي ويقول للقذافي مستشهدًا بالآية: ﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾.

ويأتي تقرير بصوت مذيع فخم العبارة مشرق الديباجة عن النظام السوري، فيتحدث عن منذر الأسد، ويقول مشيراً لآية سورة يوسف: ﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾، ويتعرض الرئيس اليمني لمحاولة اغتيال وينجو بصعوبة، فيقول المذيع: ﴿ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾، وعلى ذكر اليمن فإنني أحفظ استشهادات قرآنية من اليمن في هذا الباب، منها أن أحد الطلاب في جامعة يمنية قال لأستاذه: ما بالنا يا أستاذ، ونحن في جزيرة العرب جيران مع السعودية وحالهم الاقتصادي كما ترى وحالنا كما ترى؟ فقال الأستاذ:

لأن صاحبهم يقصد إبراهيم عليه السلام قال في أرضهم: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ وصاحبنا في سبأ قال: ﴿رَبَّنَا بَٰعِدۡ بَيۡنَ أَسۡفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾.

وفي كتب الأدب أن رجلاً من قريش قال ليمني: ما فعلت عجوزكم التي حكمتكم؟ يقصد بلقيس، قال: عجوزنا أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، وعجوزكم حمّالة الحطب دخلت النار مع أبي لهب، وكان في اليمن أحد الأعيان الوجهاء مشهور بأكل الربا والكذب، فدعا بعض الناس لمأدبته وفيهم شاعر، ثم جلس في رأس المأدبة يحدثهم بخرافات وأباطيل ثم التفت إلى الشاعر، فقال: كيف حالكم يا فلان؟ فقال: حالنا كما قال الله تعالى: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِ﴾، وسمع داعية كان يسكن أوروبا أن نظام حافظ الأسد بدأ بحوار مع العلماء والدعاة فاغتر ورجع إلى سوريا، فلما وصل المطار وجد الاستجواب فعاد بعدها بحيلة إلى أوروبا فسأله زملاؤه: كيف وجدت سوريا؟ قال: وجدتها ﴿مُلِئَتۡ حَرَسًا شَدِيدٗا وَشُهُبٗا﴾، وكان الرئيس التونسي بن علي يمنع المحاضرات والدروس والندوات الإسلامية فلما جاء البث المباشر التلفزيوني أخذت الشاشة تصب في غرفة نومه محاضرات ودروس العلماء والدعاة، فقال أحد مفكري تونس: ﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾.

وقد سافرت في رحلة ماتعة مع الراغب الأصبهاني والجرجاني والزمخشري والجاحظ والشعراوي والطنطاوي وهم يضعون أصبعي على إبداعات وجواهر وأسرار القرآن، فأصبحت أي مقولة أو قصيدة لا يهش لها قلبي ولا تجنح معها نفسي بقدر ما تمتلئ روحي من بلاغة القرآن وعظمته وأسره، وقد حلّق الرافعي في كتابه: (تحت راية القرآن) عن سر خلود وروعة وإبداع القرآن بفيض من البراعة الأدبية التي لا يستطيعها غيره.